النظم والتواصل

لدى عبد القاهر الجرجاني

إبراهيم أسيكار

تقديم

صاغ عبد القاهر الجرجاني وعيا بلاغيا جديدا انطلاقا مما انتهى إليه فيما اصطلح عليه بعده "بنظرية النظم" التي أسّس معالمها في كتابه "دلائل الإعجاز" لتحقيق غايتين: أولاهما الردّ على من أفرطوا في تعليق بلاغة الفعل التواصلي اللفظي بالألفاظ أكثر من المعاني. وثانيتهما انتشال الدراسة البلاغية للكلام البليغ من أسر الأحكام الانطباعية التي تنأى بنتائج التحليل البلاغي عن الأسس العقلية الاستدلالية.

وجدير بالملاحظة أن عبد القاهر استثمر في نظريته هذه المعطى اللغوي و النحوي بشكل يختلف عما هو معهود في الدراسات النحوية و البلاغية السابقة عليه. فقد مهّد لتصوره الجديد بالرفع أولا من قيمة النحو وردّ الاعتبار له بإنزاله منزلة أحد أسس العبادة وذلك حين ردّ على خصومه بقوله: " وأما زهدهم في النحو واحتقارهم له، وإصغارهم أمره، وتهاونهم به، فصنيعهم في ذلك أشنع من صنيعهم في الذي تقدم، و أشبه بأن يكون صدا عن كتاب الله، و عن معرفة معانيه".[1]

وهذه الحُظْوَةُ التي خصّ بها عبد القاهر علم النحو هي بمثابة مقدمة نتيجتها هي التمييز في الدراسة النحوية بين مستويين: مستوى معياري يرادف النحو وغايته التمييز بين الصواب والخطأ، ومستوىً وصفي يرادف معاني النحو و مرماه تحويل صرامة قواعد النحو إلى آليات للتوليد الدلالي عبر البحث عن المزية في اللغة. و يعلل عبد القاهر قدرة القواعد النحوية على توليد الدلالة بكون " الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذي يفتحها، و أن الأغراض كامنة فيها حتى يكون هو المستخرج لها، و أنه المعيار الذي يتبين نقصان كلام و رجحانه حتى يعرض عليه".2

ومهما تكن قيمة هذا الاجتهاد الذي أعاد به عبد القاهر علم النحو إلى حضيرة علم البلاغة بعد أن خرج منها أو كاد بسبب سلطة فكرة البيان الجاحظية، فإن صنيع عبد القاهر في نظرية النظم لا

يمكن إطلاقا عزله عن النقاش البلاغي السابق عليه بخصوص ثنائية اللفظ و المعنى، مثلما لا يمكن عزله عن الجدل الكلامي بخصوص طبيعة الكلام. وهذا المعنى ليس وليد التخمين بقدر ما هو حقيقة أقرّها عبد القاهر نفسه حينما قال: " و لم أزل منذ خدمتُ العِلم أنظر فيما قاله العلماء في معنى الفصاحة والبلاغة و البراعة، وفي المغزى من هذه العبارات وتفسير المراد بها... ووجدتُ المعول على أن ههنا نظما وترتيبا، وتأليفا وتركيبا وصياغة وتصويرا ونسجا وتحبيرا، و أن سبل هذه المعاني في الكلام الذي هي مجاز فيه، سبيلها في الأشياء التي هي حقيقة فيها".[3]

لن ننشغل بالبحث عن الجذور المعرفية لنظرية النظم، مثلما لن نهتم بخلفياتها المذهبية لكثرة ما كتب عنها قبلنا، وسنعمل بدل ذلك على كشف الأبعاد التواصلية التي تنطوي عليها فكرة النظم وذلك من خلال علاقتها بالمتكلم و المتلقي باعتبارهما قطبي أي فعل تواصلي لفظي.

1- النظم في علاقته بمنتجه:

أوْلى عبد القاهر الجرجاني المتكلم في نظريته حول النظم عناية خاصة، و تتجلى هذه العناية في كثرة الألقاب التي خصّه بها، ومنها: المتكلم والمُخبِر والمؤلّف والشاعر والناظم والمُنشئ والقائل وواضع الكلام. ويُعزى جزء من هذه العناية إلى أشعريّة عبد القاهر التي تلح على أن الكلام بما هو إنجاز نفسي أولا لابد له من متكلم.

ولما كانت جودة النظم هي أساس المزية في الإنجاز اللغوي، أناط عبد القاهر فعل المزية بالمتكلم دون واضع اللغة، الذي تنحصر مهمته في المواضعة التي تجعل أسماء المسميات رهن إشارة المتكلم، الذي حرص عبد القاهر على تمييزه عن واضع اللغة بقوله: "إن الفصاحة فيما نحن فيه، عبارة عن مزية هي بالمتكلم دون واضع اللغة، و إذا كان كذلك، فينبغي لنا أن ننظر إلى المتكلم، هل يستطيع أن يزيد من عند نفسه في اللفظ شيئا ليس هو له في اللغة، حتى يُجْعَل ذلك من صنيعه مزية يُعبر عنها بالفصاحة؟ وإذا نظرنا وجدناه لا يستطيع أن يصنع باللفظ شيئا أصلا، ولا أن يحدث فيه وصفا "4. معنى هذا أن مهمة واضع اللغة تنحصر في مستوى قوانين اللغة، أي المستوى المعياري الذي يرادف النحو، فيما تنحصر مهمة المتكلم في مستوى معاني النحو الذي تتحقق فيه الخصائص الفنية للإنجاز الكلامي عن طريق جودة النظم.

لقد انتبه عبد القاهر وهو بصدد الحديث عن أهمية المتكلم في الفعل التواصلي اللفظي إلى أن ما ينجزه المتكلمون من تحققات نظمية، غايته تحقيق المزية التي هي تتويج لمجهود عقلي سابق على الجهد

التلفظي. يقول عبد القاهر: "ليس الغرض بنظم الكلم أن توالت ألفاظها في النطق، بل أن تناسقت دلالاتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل" [5]. وانطلاقا من هذه الفكرة، سينتقل عبد القاهر إلى تعزيز فرضيته التي تلح على أن المعنى الذي ينشئه المتكلم الذي يتوخى مزية النظم في كلامه، ذو طبيعة عقلية ونفسية، يقول: "وواضح من هذا كله، وهو أن هذا النظم الذي يتواصفه البلغاء وتتفاضل مراتب البلاغة من أجله، صنعة يستعان عليها بالفكرة لا محالة. وإذا كانت مما يستعان عليها بالفكرة، ويستخرج بالروية فينبغي أن ينظر في الفكر، بماذا تلبّس؟ أبالمعاني؟ فأي شيء وجدته الذي تلبّس به فكرك من بين المعاني و الألفاظ فهو الذي تحدث فيه صنعتك". [6]

وإلى العلاقة الوطيدة بين معاني المتكلم وعقله استند عبد القاهر للتأكيد على أهمية قصد المتكلم في بلاغة الفعل التواصلي اللفظي، على اعتبار أن الكلام في نظره، إنما يُنسب إلى صاحبه بمقدار ما يصنع فيه من نظم مقصود. وقد عبّر عبد القاهرعن مفهوم القصد بجملة مصطلحات كالتوخي والمعنى والغرض... ومن أفصح نصوصه دلالة على معنى القصد في علاقته بالنظم قوله: " وجملة الأمر أنه لا يكون ترتيب في شيء حتى يكون هناك قصد على صورة وصفة إن لم يقدّم فيه ما قدم، و لم يؤخر فيه ما أُخر، وبُديء بالذي ثُني به، أو ثُني بالذي ثُلثَ به، لم تحصل لك تلك الصورة وتلك الصفة". [7]

وإمعانا في الإقناع بضرورة القصد لتحقيق مزية النظم في الكلام، شبّه عبد القاهر المتكلم في تأليفه ونسجه أجزاء الكلام، بالرسام والنقاش اللذين يبدعان في الرسم والنقش نتيجة قصدهما وتدبّرهما العقليين. يقول عبد القاهر: "وإنما سبيل هذه المعاني سبيل الأصباغ التي عمل منها الصورة والنقش في ثوبه الذي نسج إلى ضرب من التخيّر والتدبّر في أنفس الأصباغ وفي مواقعها ومقاديرها وكيفية مزجه لها وترتيبه إياها، إلى ما لم يهتد إليه صاحبه، فجاء نقشه من أجل ذلك أعجب وصورته أغرب، كذلك حال الشاعر والشاعر في توخيهما معاني النحو ووجوهه التي علمت أنها محصول النظم". [8]

ولعل أوضح مثال يكشف عن وعي عبد القاهر بأهمية قصد المتكلم في فعل النظم وفق قوانين النحو، برهنته عن استحالة إنتاج المتكلم لكلام مفهوم لم يقصد فيه إلى نظم كلماته نظما مخصوصا. يقول عبد القاهر: "وإن أردتَ أن ترى ذلك عيانا فاعمد إلى أي كلام شئتَ، وأَزِلْ أجزاءه عن مواضعها، وضعها وضعا يمتنع معه دخول شيء من معاني النحو فيها، فقل في: "قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل" "من نبك قفا حبيب ذكرى منزل" ثم انظر هل يتعلق منك فكر بمعنى كلمة منها". [9]

وتبعا لهذه الأهمية التي أوْلاها عبد القاهر للمتكلم ودور قصده في إنجاز كلام مزيته في طريقة نظمه وفق قوانين النحو، بما هي آلية تسعف في إمكانية اختيار أجزاء الكلام والمواقع المناسبة لها، لاحظ مصطفى ناصف أن النشاط النحوي في علاقته بمقاصد المتكلم "ليس ضربا من المتابعة الجوفاء ولا هو نظام أعمى خال من الدلالات ولا هو أيضا ضرورة اقتضتها العادة اللغوية، وإنما النظام النحوي نمط من الإفادة و الإفصاح ينبغي ألا يهمل بحال".10

وأمام شدة التعالق القائم بين قوانين النحو و مقصدية المتكلم في مختلف أنماط القول، لم يتوان حميد لحمداني في اعتبار مقصد المتكلم بؤرة و مفتاح نظرية النظم برمتها. يقول: "وحيث أن مفهوم القصد أو الغرض يحتل مكانة محورية في نظرية النظم الجرجانية، فقد اعتبرنا مفهوم المقصدية مفتاحا لفهم نظرية القراءة عند الجرجاني"11. بيد أننا إذا علمنا مع طه عبد الرحمن أن حقيقة الكلام " تبنى على قصدين اثنين أحدهما يتعلق بـــ "التوجه إلى الغير" والثاني يتصل بـــ "إفهام هذا الغير"" [12]، أدركنا أنه من الضروري أن يحسب عبد القاهر حسابا خاصا للمخاطَب في نظريته حول النظم.

2- النظم في علاقته بمتلقيه:

لقد نظر عبد القاهر، وهو بصدد التأسيس لقوانين النظم في التواصل اللفظي البليغ، إلى النشاط اللغوي على أنه تفاعل تواصلي بين متكلم ومخاطب. وإذا كنا رأينا فيما تقدم أن المتكلم لا يؤلّف أجزاء كلامه إلا بعد ترتيب المعاني في نفسه، بمعنى أنه يعقل المعاني أولا، ثم يختار لها من الألفاظ ما يناسبها ومن النظم ما هو كفيل بتحقيق المزية؛ فإن المخاطَب من جهته ليس ذاتا سلبية وخاملة، مُهمتها تلقي نظم المعاني و الألفاظ كيفما اتفق، بل هو مدعو في نظر عبد القاهر إلى أن يستفيد القصد الذي بثه المتكلم في كلامه، و ذلك باعتماد ما يتيحه له هو أيضا عقله وذوقه و انفعاله بأحوال النظم.

وبقطع النظر عن اعتبار عبد القاهر المتكلم في نظريته حول النظم منطلق العملية التواصلية، واعتبار المخاطَب تبعا لذلك في مرتبة تالية، و ذلك بسبب مُمَاشاته لمختلف الأدبيات العربية الإسلامية السابقة عليه، و التي تحدد للعملية التواصلية اللفظية وجهة واحدة مصدرها المتكلم و منتهاها المخاطَب؛ فإن اعتبار عبد القاهر للمخاطَب في نظريته حول النظم يبقى اعتبارا عميقا ودقيقا، أي أن هذا الاعتبار كان بمعنى من المعاني تجاوزا لمختلف التصورات البلاغية عليه والتي تفترض أن المخاطَب ينبغي إفهامه دون أن يشارك هو في بناء فهمه عن طريق ما هو متاح له من الآليات الذهنية كالتقدير والاستدلال. ويوضح شكري المبخوت هذا التجاوز بقوله: "إن عبد القاهر يتعامل مع المتلقي من خلال مفهومه

الإبداعي، وهو مفهوم يضع المتلقي في مرتبة تالية للمبدع لكنه برغم ذلك يعطيه حقوقا لا تقل أهميتها عن الحقوق التي يحوزها المبدع ذاته. كما أنه يضفي عليه مواصفات تكاد تتعادل مع المواصفات الإبداعية. ومع الجمع بين الحقوق والمواصفات تتعدد طبيعة المتلقين ما بين قارئ ناقد، وقارئ متذوق، ومتلق معلوم أو مجهول و متلق سلبي أو إيجابي". 13

وقصد الوقوف على هذه المغايرة التي طرح بها عبد القاهر مسألة التلقي في نظريته حول النظم، سنحاول الوقوف على هذه المغايرة من خلال سمتين اثنتين يراهما عبد القاهر ضروريتين في كل مخاطب يرمي إلى اكتناه المزايا التي تنطوي عليها قوانين النحو. وليس من نصوص عبد القاهر ما هو أكثر دلالة عن هذا، و هو بصدد الحديث عما تُنال به المزية، من قوله: "إنها ليست لك حيث تسمع بأذنك، بل حيث تنظر بقلبك، وتستعين بفكرك، وتُعمِل رويّتك، وتُراجع عقلك. وتستنجد في الجملة فهمكَ، وبلغ القول في ذلك أقصاه، وانتهى إلى مداه". 14

ولعل الذي دعا عبد القاهر إلى التنصيص على فعل التدبّر الذي رادفه في كتابه "دلائل الإعجاز" بمرادفات كثيرة منها: العقل والتروّي والضمير والفكر والبصيرة والذهن والبديهية، هو اعتقاده الراسخ بأن النظم لا يمنح معاني النحو إلا للمخاطَب الحاذق مادام كل نظم جيّد ينطوي على "دقائق وخفايا لا على حدّ و نهاية، وأنها خفايا تكتم أنفُسَها جُهدَها حتى لا يُتنبه لأكثرها، ولا يُعلَم أنها هي، وحتى لا تزال ترى العالِم يعرِضُ له السهو فيه، وحتى إنه ليقصد إلى الصواب فيقع في أثناء كلامه ما يوهم الخطأ، كل ذلك لشدة الغموض". 15

ومن شدة مراهنة عبد القاهرعلى فعل التدبّر باعتباره إجراء يسعف المخاطَب الحاذق في الوقوف على معاني النحو التي تنبع من داخل النظم وليس خارجه، يرى شكري المبخوت أن عبد القاهر ما كان له أن يبلور أسس نظرية النظم و يقدم في ضوء أسئلتها تصورا مغايرا للتلقي في الدرس البلاغي العربي القديم " لو لم يبن فهمه لممارسة الإبداع و التركيب على أساس من العقل".16

ويزداد هذا النزوع العقلي إلحاحا في عملية التلقي، حينما يدعو عبد القاهر المخاطَب إلى ضرورة إعمال عقله لتعليل مزية النظم، وكأننا بعبد القاهر يريد أن يُشعر هذا المخاطَب بأنه متلق واع وناقد يتجاوز تلقيه تلقي العامة من الناس. يقول عبد القاهر:" وجملة ما أردتُ أن أبينه لك: أنه لابد لكل كلام تستحسنه ولفظ تستجيده، من أن يكون لاستحسانك ذلك جهة معلومة وعلة معقولة"17

وأمام هذه النزعة العقلية المفرطة التي أصبغ بها عبد القاهر فعل التلقي، رأى حمادي صمود أن صنيع عبد القاهر في نظريته حول النظم فيه إخضاع " الكلام لنواميس الفكر وبروزه على هيئة تحاكي

الروابط المنطقية التي يقيمها بين المعاني فتكون البنية اللغوية صدى لبنية عقلية منطقية سابقة"18 . فيما أغرت هذه النزعة العقلية محمد عبد المطلب فماثل بين صنيع عبد القاهر وصنيع تشومسكي في اللسانيات التوليدية، فقال:"وقد كان همّ تشومسكي موجها إلى ربط اللغة بالجانب العقلي، في محاولة توفيقية لحل الإشكال نفسه الذي سبق أن واجه عبد القاهر، وقد تبلور جهد كل منهما في إعطاء النحو إمكانات تركيبية مستمدة من قواعده العقلية". 19

أما سِمة التذوق والانفعال التي اشترطها عبد القاهر بدورها في التلقي الحاذق لمعاني النحو، فيعود تركيزه عليها إلى وعيه بما تتيحه قوانين النحو للمخاطَب من احتمالات دلالية كبيرة تتغير بموجبها انفعالاته. بيد أن هذه الانفعالات ليست مضمونة لكل المخاطبين بل لابد أن يكون المخاطب من أهل الذوق والمعرفة. وعن هذا يقول عبد القاهر" واعلم أنه لا يصادف القول في هذا الباب موقعا من السامع ولا يجد قبولا حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة".20

إن من يتتبع ما قاله عبد القاهر عن انفعالات المخاطَب بعد تذوقه لمعاني النحو في الكلام العادي أو المجازي الاستعاري، سيبهره غنى المعجم الذي سخره لإبراز مفعول مزيّة النظم في نفوس المخاطبين إيجابا وسلبا. يظهر هذا في مثل قوله:" إنك ترى الكلمة تروقك و تؤنسك في موضع، ثم تراها بعينها تثقل عليك و توحشك في موضع آخر"21 . وضمن هذا الإطار أحصى محمد مشبال ما يزيد عن عشرين مصطلحا بلاغيا دالا في لغة عبد القاهر عن الجانب النفسي للمخاطَب. ومن هذه المصطلحات: "الأريحية والارتياح والهزة والروح والخفة والإيناس والأنس والبهجة والروعة والهيبة والاهتزاز والنشوة والصبابة والكلف والمحبة..." [22] . وهي نفس المصطلحات التي وقف عندها فاضل وهبي بدوره، سوى أنه انتبه إلى ما فيها من تدرج فضلا عن التمييز فيها بين المحمود اللذيذ والمذموم الأليم. يقول: "يمكن قسمة هذه المعاني إلى قسمين متوازيين واحد محمود ومطلوب والآخر مذموم... وفيها بعضا من التدرج في الأقوال ضمن وضعين أساسين هما اللذة و الألم" [23] .

بيد أنه إذا كان الباحثان السابقان يريان في وفرة هذا النوع من المصطلحات البلاغية في لغة عبد القاهر اعتبارا لفاعلية المتلقي في الفعل التواصلي اللفظي البلاغي؛ فإن حميد لحمداني يرى خلاف ذلك، حينما سجل أن مجموع هذه الانفعالات التي قرنها عبد القاهر بالمخاطَب تقدم لنا مخاطبا (قارئا) منفعلا أكثر مما هو فاعل. إذ لا يعتقد الجرجاني أن المخاطَب (القارئ) قادر على إضافة أي شيء زائد على ما فكر فيه المتكلم24 .

خاتمة

لا يحتاج الأمر بعد الذي تقدم في الفقرات السابقة إلى التأكيد على أن النظم باعتباره أحد مرتكزات الفعل التواصلي اللفظي العادي أو البليغ، كان مثار اهتمام عبد القاهر الجرجاني وذلك نتيجة اهتماماته النحوية والبلاغية المتضافرة. اهتمام أعاد الاعتبار للدراسة النحوية العربية التي عزلها الهاجس التقعيدي لدى الجيل الثاني من النحويين العرب القدامى عن أسئلة التداول البلاغي التي نشأ النحو العربي القديم في رحابها مع الجيل الأول من النحويين القدامى أمثال سيبويه وابن جني وغيرهما. ومكمن الطرافة في تصور عبد القاهر للبعد النظمي في التواصل اللفظي، هو تركيزه بشكل غير مسبوق في البلاغة العربية، على دور كفاءات المتكلم والمتلقي في تفعيل هذا البعد والانتقال به من معطى تقعيدي صارم إلى معطى تداولي وبلاغي منتج.

المصادر والمراجع:

1-عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط: 5، سنة : 2004، ص: 28.

2-عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز. ص: 28.

3-عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز. ص: 34.

4-عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز. ص: 401.

5-عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز. ص: 49 – 50.

6-عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز. ص: 51.

7-عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز. ص: 364.

8-عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز. ص: 87.

9-عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز. ص: 410.

10-مصطفى ناصف: النحو و الشعر، قراءة في دلائل الإعجاز، مجلة: فصول، المجلد: 1. العدد: 2 – 3. سنة: 1981. ص: 37.

11-حميد لحمداني: القراءة و توليد الدلالة، تغيير عاداتنا في قراءة النص الأدبي. المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط: 1، سنة: 2003.ص: 105.

12طه عبد الرحمن: اللسان و الميزان أو التكوثر العقلي. المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط: 1، سنة : 1998، ص: 214.

13شكري المبخوت: جمالية الألفة، النص ومتقبله في التراث النقدي. منشورات المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، تونس، ط: 1، سنة: 1993، ص: 60.

14-عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز. ص: 64.

15-عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز. ص: 285.

16-شكري المبخوت: جمالية الألفة، النص ومتقبله في التراث النقدي. ص: 63.

17-عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز. ص: 41.

18–حمادي صمود: التفكير البلاغي عند العرب، أسسه و تطوره إلى القرن السادس. منشورات الجامعة التونسية، تونس، ط: 1، سنة : 1981 ص: 217.

19–محمد عبد المطلب: (النحو بين عبد القاهر وتشومسكي). مجلة : فصول، المجلد: 5، العدد: 1. أكتوبر، نوفمبر، ديسمبر، سنة: 1984. ص: 28.

20–عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز. ص: 291.

21–عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز. ص: 46.

22–محمد مشبال: (الأثر الجمالي في النظرية البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني). مجلة: دراسات سميائية أدبية لسانية، عدد: 6. سنة: 1992. ص: 130.

23–فاضل وهبي: (حقل المعاني عند البلاغيين المتأخرين). مجلة: الفكر العربي، عدد: 46. سنة : 1987، ص: 30 – 31.

24–حميد لحمداني: القراءة و توليد الدلالة، تغيير عاداتنا في قراءة النص الأدبي، ص: 110.